خطبة صلاة الجمعة 26/ 4/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(بهداهم اقتده)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

في سورة الأنعام بعد تسعين آية تكلمت عن سبعة عشر نبياً إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، فلم يرضَ لكم ربكم إلا أن تكونوا من وراء الأنبياء؛ لأنه يليق بكم أن تكونوا وراءهم.

في سورة الممتحنة دعانا القرآن الكريم لنقتدي بأبي الأنبياء سيدنا إبراهيم والمؤمنين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الممتحنة: 4]، فجدير بمن دعاه القرآن ليقتدي بالكبار أن يكون كبيرا.

وفي سورة الأحزاب جعل القرآن كمالنا في الاقتداء بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21].

عنوان خطبة اليوم: بهداهم اقتده

أيها الإخوة:

أنبياء الله تعالى هم الكمال البشري، في حسن صلتهم بربهم وحسن صلتهم بعباده، هم العُبَّاد إذا حانت الصلاة، والفرسان إذا كان الجهاد، هم الصبر في معترك الحياة، والشكر في أيام الرخاء، هم الرحمة في تعاملهم مع الخلق، والأدب في تعاملهم مع الخالق.

فعفّة يوسف، ودأب نوح، وصبر أيوب، ودعاء زكريا، وبر إسماعيل، وتوبة آدم، وضراعة يونس، ومكابدة موسى، وفهم سليمان، وصوم داود، وإحسان عيسى، وتضحية إبراهيم، ورحمة محمد صلى الله عليه وسلام الله عليهم أجمعين؛ كلُّ ذلك منارات للمؤمنين ومشاعل تضيء درب السالكين.

يُذكر أن كسرى أوفد رسولاً إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في المدينة المنورة، وتوقع الرسول أن يجد عمر في قصرٍ منيف، وإذا بهم يأخذونه إليه قائلاً تحت ظلّ نخلة في المسجد من دون حارس أو حاجب، فيقول كلمته الشهيرة: عدلت فأمنت فنمت، ويخاطب الرسول أميرَ المؤمنين عمر يقول: إنك لنبي، فيقول عمر: لست بنبي ولكني أعمل عمل الأنبياء.

فعملك عمل الأنبياء يوصلك إلى كمال ورفعة.

أخرج الإمام أحمد في مسنده والبيهقي في السنن الكبرى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلاَءِ الأُسَارَى؟»** فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمُكَ وَأَصْلُكَ اسْتَبْقِهِمْ وَاسْتَتِبْهُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَذَّبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ قَدِّمْهُمْ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، فقال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ اللَّهَ لَيُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُشَدِّدُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَى قَالَ: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ مَثَلُ مُوسَى قَالَ: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ: {رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}.**

فهاهو ﷺ يشبه حال الصحابة بحال الأنبياء يحثهم على الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم.

ويقول لسيدنا علي رضي الله عنه — فيما يرويه البخاري ومسلم-: **«أما ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى، غيرَ أنه لا نبيَّ بعدي؟»**.

وتروي كتب التراجم في ترجمة أبي مسلم الخولاني تقول: أبو مسلم الخولاني أدرك الجاهلية وأسلم قبل وفاة النبي ﷺ ولم يره، وقدم المدينة حين قُبض النبي صلى الله عليه وسلم واستُخلِف أبو بكر، وهو معدود في كبار التابعين، واسمه عبد الله بن ثوب، كان فاضلاً ناسكاً عابداً ذا كرامات وفضائل.

روى إسماعيل بن عياش عن شرحبيل بن مسلم الخولاني أن الأسود بن قيس بن ذي الخمار تنبأ باليمن، فبعث إلى أبي مسلم فلما جاءه قال: أتشهد أني رسول الله؟! قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم. فردد ذلك عليه، وفي كله يقول مثلَ قوله الأول، قال فأَمَرَ به فأُلْقِيَ في نار عظيمة فلم تضره. فقيل له: انفِهِ عنك وإلا أفسد عليك من اتبعك. قال: فأمره بالرحيل فأتى المدينة وقد قُبِض النبي صلى الله عليه وسلم واستُخْلِفَ أبو بكر، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد ودخل المسجد فقام يصلى إلى سارية، وبصُر به عمر بن الخطاب فقام إليه فقال: ممن الرجل قال من أهل اليمن. قال ما فعل الرجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب. قال: أنشدك الله أنت هو؟!

قال: اللهم نعم. فاعتنقه عمر وبكى ثم ذهب به حتى أجلسه فيما بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد من فُعِلَ به ما فُعِلَ بإبراهيم خليل الله.

وفي حلية الأولياء لأبي نعيم في ترجمة التابعي الجليل سليمان بن يسار عالم المدينة ومفتيها، كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها، فقالت له: ادن، فخرج هارباً من منزله وتركها فيه! قال سليمان بن يسار: فرأيت بعد ذلك فيما يرى النائم نبي الله يوسف عليه السلام وكأني أقول له: أنت يوسف نبي الله؟ قال: نعم، أنا يوسف الذي همَّت به وأنت سليمان الذي لم تهم!.

وفي سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي أن أبا داود صاحب السنن، كان يُشَبَّه بأحمد بن حنبل في هديه ودله وسمته –الهدي حسن السيرة، والدل حسن الهيئة، والسمت حسن المذهب في أمر الدنيا والدين– وكان أحمد يشبه في ذلك بوكيع، وكان وكيع يشبه في ذلك بسفيان، وسفيان بمنصور، ومنصور بإبراهيم، وإبراهيم بعلقمة، وعلقمة بعبد الله بن مسعود، وقال علقمة: كان ابن مسعود يشبه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، في هديه ودله وسمته.

فالتشبه بالأنبياء والاقتداء بهم والعمل وفق عملهم فلاح ورفعة وسعادة في الدارين.

أيها الإخوة:

كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يدعو أصحابه للتأسي بالأنبياء ويحثهم على أن يعملوا عملهم ويجتهدوا اجتهادهم ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً.

فهاهو صلى الله عليه وسلم يخبرُ بكثرة صيام عبد الله بن عمرو بن العاص فيأمره أن يصوم صوم داود، ففي البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «أُخْبِرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَنِّي أَقُولُ: والله لأَصُومَنَّ النَّهارَ، ولأَقُومَنَّ اللَّيلَ ما عِشْتُ، فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**أنت الَّذي تقُولُ ذلك ؟**» فقلت له: قد قلتُه، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: «**فإنك لا تَسْتطيعُ ذلك، فَصُمْ وأفْطِرْ، ونَمْ وقُمْ، وصُمْ من الشَّهرِ ثلاثَةَ أيَّامٍ، فإنَّ الحَسَنَةَ بعشْرِ أمثالها، وذلك مِثْلُ صيام الدَّهر**»، قُلتُ: إنِّي أُطِيقُ أفْضَلَ من ذلك، قال: «**فصُمْ يومًا أفطِرْ يومَينِ**»، قلت: فإنِّي أطيقُ أفضلَ من ذلك، قال: «**فصُم يومًا وأفطِر يومًا، فذلك صيام دَاودَ عليه السلام، وهو أفضل الصيام**»، قُلتُ: فإني أطيقُ أفضلَ من ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا أفْضَلَ من ذلك**».

فلا أفضل من عمل الأنبياء كما يقوله صلى الله عليه وسلم.

ويسمع صلى الله عليه وسلم صوت أبي موسى الأشعري بالقرآن فيجعل كماله بشبهه بصوت داود عليه السلام بالزبور، فقد أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**لو رأيتني البارحة وأنا أسمعُ لقراءتك؟ لقد أُعْطِيتَ مِزْمارا من مزامير آل داود**».

قال ابن الأثير الجزري: ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المزمار مثلاً لحسن صوت داود عليه السلام وحلاوة نغمته، كأن في حلقه مزامير يزمر بها، والآل في قوله: «آل داود» مقحمة، ومعناه: الشخص.

فلا أكمل ولا أجمل من أصوات الأنبياء وهم يتلون كلام ربهم كما يقوله رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة:

لكي نعمل عمل الأنبياء ونسير سيرهم مطلوب منا أمران:

أولهما: اللحاق بمجالس العلم والعلماء لنتعلم منهم هدي الأنبياء وأعمالهم، وسيرهم ونهجهم.

ثانيهما: الإكثار من ذكر الله تعالى ليرق القلب وتتهذب النفس ويصفو الطبع وتعلو الهمة ليستطيع المرء أن يعمل عملهم ويلحق بركبهم إذ لا يحمل عطايا الملوك إلا مطاياها.

ولأننا مقبلون على شهر رمضان المبارك فإني سأحدثكم في الأسبوع القادم بإذن الله عن هديه صلى الله عليه وسلم إذا دخل رمضان لنهتدي بهديه ونتأسى بسنته عسى الله أن يلحقنا بركبه في الدنيا والآخرة.

اللهم أدبنا بآداب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وخلقنا بأخلاقه وأكرمنا بصدق التأسي به في الأقوال والأفعال.

والحمد لله رب العالمين